وللقَسَم فائدتان:

إحداهما: بيان عظمة المقسَم به.

والثانية: بيان أهمية المقسَم عليه، وإرادة توكيده، ولذا لا يحسن القَسَم إلا في الأحوال التالية:

الأولى: أن يكون المقسَمُ عليه ذا أهمية.

الثانية: أن يكون المخاطَب متردِّدًا في شأنه.

الثالثة: أن يكون المخاطَب مُنْكِرًا له.

الشرح

يعني: القَسَم لا يحصُل إلا في الأحوال التالية:

الأول: أن يكون المقسم عليه ذا أهمية؛ ولو كنت تخاطب من لا يُنْكِر لا لإثباته في ذهن المخاطب، ولكن لبيان أهميته، إذ إن الذي ليس له أهمية لا يُقْسَم عليه؛ لأنه يقال: هو سواء صدَّق بالخبر أو لم يُصدق، لكن إذا كان له أهمية فإنه يُقْسَم عليه، وإن لم يستقسم، وإن لم ينكر المخاطب، ألم تروا إلى قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1]، فلا أحد ينكر ممن يخاطِبهم، ولا أحد يتردد في ذلك، لكن لأهمية الأمر، وهذا يأتي كثيرًا بأن يكون القَسَم بدون تردُّدٍ من المخاطَبِ، وبدون إنكار منه، وبدون طلب له، يعني: لا يقول له: (أقسم) أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

الثاني: أن يكون المخاطب متردِّدًا في شأنه؛ فهنا قال أهل البلاغة: إنه يحسن التوكيد ولا يجب؛ لأن المتردد قد يكفيه الخبرُ المجرَّد، فتحلف ليطمئن ويزول عنه الشك.

الثالث: أن يكون المخاطَب مُنْكِرًا له؛ وقد قال أهل البلاغة: إنه إذا كان المخاطَب مُنْكِرًا، وجب تأكيدُ الكلام سواء بالقسم، أو بغير القسم؛ حتى يكون المخاطب مطمئنًّا، ولهذا قلنا: لا يَحْسُن القسم، وإنما يحسن مخاطَبَةُ المنكر بما يمكن أن يؤكد له بغير القسم.

فمثلًا: الذين زعموا أن لن يبعثوا قال الله تعالى لنبيه: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]؛ لأنهم منكرون.

فإن قال قائل: كلامُك هذا منقوضٌ؛ لقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون:١٥]، فهنا مؤكَّدٌ لكن بلا قسمٍ، مع أنه لا أحد ينكره؟

أجاب أهلُ البلاغة عن هذا فقالوا: نزلَ المخاطَبُ منزلة المنكر؛ لأنه لم يعمل لهذا اليوم الذي هو يوم موته.

وللقَسَم فائدتان:

الأولى: بيان عظمة المقسَم به.

والثانية: بيانُ أهمية المقسَم عليه.

ولهذا لا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله، ويُستفاد من بيان عظمة المقسَمِ به، لكن يجوزُ لله أن يحلِف بما شاءَ من المخلوقات، أو بنفسه -سبحانه وتعالى-، وحلفه ببعض المخلوقات يدُلُّ على عظمة هذا المخلوق، وأنه جديرٌ

بأن يكون مقسَمًا به.

مسألة: هل يجوز أن يقولَ: (لعمرك)، أو (لعمري)؟

الجواب: يجوز ذلك؛ لأنه قَدْ جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ وعن الصحابة قولهم: «لَعَمْرِي»[1]؛ لأن هذا في الواقع ليس قَسَمًا يُراد به الحلف الذي يكون به شركًا أو كفرًا؛ إذ إن صيغة القسَم لا تكون إلا بالواو أو الباء أو التاء، أما (لعمرك) فإنه قَسَمٌ، أي: بمعنى القسَم، ولهذا لو قال: و(عمري) أو (عمرك) صار مقسمًا به وصار حرامًا.

كذلك -أيضًا- مثل قولهم: (يمين الله)، فهي بمعنى: (عهد الله).

أما القَسَم فلا يكون إلا بالصيغة التي تقدَّم بيانها.

فإن قال قائل: قول الرسل -عليهم السلام-: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٦]، هل هذا يعتبر قسمًا، أم هو في معنى القسم؟

الجواب: أن نقول: إن هذا بمعنى القسم، ولهذا أجيب بما يجاب به القسم ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ لكن ليس فيه قَسَمٌ؛ لأنهم ما قالوا: (والله إِنَّا لمرسلون)، بل قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

فإذا قال قائل: هل قولُ بعضِهم: (يعلم الله ما فعلتُ كذا)، هل هذا حُكْمُه حكم اليمين أم لا؟

---

(١) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (١٤٤٥٠)، وقد ورد من كلام الصحابة، كما في كلام عائشة -رضي الله عنها-، أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ...﴾، رقم (٤٦٩٦)، ومنه كلام ابن عمر -رضي الله عنه-، أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ، رقم (١٢٥٥).

الجواب: إن بعض العلماء قالوا: إن قائل هذه الصيغة على خطرٍ عظيمٍ إذا كذب؛ لأن قوله هذا يقتضي أن اللهَ جاهِلٌ بالواقع، ولهذا قال بعضُ أهل العلم: إن هذه من أخطر ما يكون في باب اليمين.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القـــصـــص

١- تكرار القصص.

رَفعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الـقَـصَـص

القَصَص، والقَصُّ لُغةً: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل، يتبع بعضُها بعضًا.

وقَصَص القرآن أصدق القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]، وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القَصَص؛ لقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

الشـرح

إذن: القَصَص في اللغة تَتَبّعْ الأثر، ومنه قوله -تعالى-: ذ أي: يقُصَّان الأثَر ويتبعانه، لكنها في الاصطلاح: الإخبار عن قضيةٍ ذات مراحل، يتبع بعضها بعضًا، فلو قلت: «زيدٌ قائم» فهذه ليست قصة؛ لأنها ليست ذات مراحل يتبع بعضها بعضًا، ولو قلت: «سافر زيدٌ إلى مكة، فنزل في القرية، لمدة يوم، ثم ركب منها متجهًا إلى مكة، ونزل في البلدة الفلانية، لمدة يوم» فهذه تسمى قصة.

وقوله: «قصص القرآن أصدقُ القصص» وهذا لا شك فيه؛ لأن المُخْبِرَ بها هو الله -جل جلاله-؛ لقوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، والاستفهام هنا بمعنى النفي والتحدي، يعني: لا أحدَ أصدقُ من الله حديثًا، وإن ادَّعيت، فأتِ بأحدٍ أصدق من الله حديثًا، وذلك لتمام مطابقتها للواقع، وهذا هو الصِّدق، والصِّدق مطابقةُ الخبر للواقع، والله لما أخبر اللهُ به آكد عندنا مما شاهدناه بأعيننا؛ لأن ما أخبر الله به لا يعتريه لبسٌ، وما شاهدناه بأعيننا قد يعتريه لبس، قد يرى الإنسانُ الشيءَ المتحرِّكَ ساكنًا، أو الساكن متحرِّكًا، فلا أحدَ أصدقُ من الله حديثا.

إذن القَصص الواردة في القرآن كلُّها حقٌّ وصدقٌ، ليس فيها مرية بوجه من الوجوه، وكذلك أيضًا قَصَص القرآن أحسنُ القَصَص؛ لقول الله -تعالى-: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ وذلك لاشتمالها على أعلى درجات البلاغة، وجلال المعنى، فهي أحسن القصص لفظًا، وأحسنُ القَصَص معنىً، وأحسنُ القصص نفعًا؛ لقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب، والأعمال، والأخلاق.

وغيرُ قصصِ القرآن ما جاءت به السُّنَة، فهو مثل القرآن من حيث الصدق، إذا صحَّ ذلك عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، وكذلك أنه أحسنُ قصص الخلق، وأنفعُ قصص الخلق، فما قصَّه النبي -عليه الصلاة والسلام- مِنْ أخبار بني إسرائيل، فهو حقٌّ وصدقٌ، وفيه عبرة، وفيه منفعة، وقد قَصَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- على أمته أشياء كثيرة.

ولذلك يحسن للواحد منا، أن يأخذ قصةً من القصص يتتبعها في تفسيرها ومعناها الإجمالي وفوائدها، وما تتضمنه من أحكام وحِكَمْ، يعني لو عوَّدَ الإنسانُ نفسَه على هذا لحصل له خيرٌ كثيرٌ؛ لأنها صِدقٌ وحسن ونفع؛ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

وانظر إلى خطاب إبراهيم -عليه السلام- لأبيه ومحاورته معه، قال إبراهيم -عليه السلام- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، فمعنى العبارة أنك جاهلٌ وأنا أعلم منك، لكنه تحاشى أن يقول هذه العبارة؛ لأنها شديدةٌ على الأب وربما تنفره، بل قال: ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾، والتفنن في الأسلوب ومراعاة الحال هذا أمر له وزنه.

ذُكِرَ أن أحد الخلفاء رأى رؤيا، وهي أن أسنانه قد انقلعت كلها، فاهتم لهذه الرؤيا، وقال: اءتوني بعابرٍ، فأتوا إليه بعابر، فقال: ما تقول في هذه الرؤيا التي أرقتني؟ قال: أقول إن حاشيتك ستموتُ كلُّها، ففزع الملك، وقال اضربوه وذلك لأنه رَوَّعَهُ، وأمر أن يأتوا له بعابر آخر، فأتوا بعابر آخر وقال: ما تقول، قال: أقول إن الملك سيكونُ أطولَ حاشيته عمرًا، فَسُرَّ الملك بهذا التعبير وأعطاه جائزة، على الرغم من أن معنى التعبيرين واحد، ولكنَّ الفارق بينهما في الأسلوب.

* * *

وهي ثلاثة أقسام:

- قِسم عن الأنبياء والرُّسل، وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين.
- وقِسم عن أفراد وطوائف، جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله تعالى عنهم، كقصة مريم، ولقمان، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وذي القرنين، وقارون، وأصحاب الكهف، وأصحاب الفيل، وأصحاب الأخدود، وغير ذلك.
- وقسم عن حوادث وأقوام في عهد النبي ﷺ، كقصة غزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني قريظة، وبني النضير، وزيد بن حارثة، وأَبي لهب، وغير ذلك.

الشـرح

إِذنْ قصص القرآن الكريم تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: عن الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام-، وما جرى لهم مع المؤمنين، والكافرين، وفي هذا يقول الله -تعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]؛ ولهذا فإن المصدر الوثيق عن أخبار الأمم، هو ما جاء عن الله، ورسوله -عليه الصلاة والسلام-، وفي هذه القصص عبرة عظيمة، فهي عبرة للمؤمنين، وعبرة كذلك للمكذبين.

ثانيًا: قصص عن أفراد، وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة، فنقله الله -تعالى- كقصة مريم، وقصتها مبسوطة في سورة مريم، وفيها عِبَرٌ كثيرة،

منها قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم:٢٥]، فالنظر إلى المرأة النفساء تجدها في العادة ضعيفة، ولهذا قال لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ والهزُّ بالجذع أصعب من الهز بالرأس، أي: برأس النخلة.

قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ أي: يسقط من فوقك رطبًا طريًا ثريًا جنيًا، يعني: لا ينفقس إذا سقط على الأرض، بل كالذي جناه الإنسان بنفسه، وهذا من آيات الله، فهي عبرة يعتبر بها الإنسان على قدرة الله -تبارك وتعالى-.

وكذلك قصة لقمان مع ابنه وهو يعظه، فهي قصة عظيمة فيها فوائد، فمن أهمها: **قوله -تعالى-:** ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٧-١٩] وكلها حكم.

وهنا مسألة: هل لقمان نبيٌّ أم رجل صالح؟

الجواب: الذي يظهر، أن لقمان رجل صالح، أعطاه الله الحكمة، وليس نبيًّا.

كذلك قصة الذي مَرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، هامدة يابسة، ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، يعني كيف يحيي هذه القرية بعد أن ماتت؟! فأراه الله ذلك، ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وهي مئة سنة، لأن الوقت يذهب إذا لم

تكن الروح في الجسم، ولهذا نجد النائم تمضي عليه الساعتان والثلاثة وكأنها دقيقة واحدة، والمغمى عليه أشد، وكذلك الغائب بالبنج يمضي عليه الوقت ما علم، وكذلك من باب أولى قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لأن الله أماته في أول النهار، وأحياه في آخر النهار، فقال: إما يوم إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته، أو بعض يوم، قال الله -تعالى- له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ -سبحان الله- مئة عام، ولم يتغير الرجل، ما زاد شعره، ولا حَصل له نمو، ولا تَغيُّر، ولا انتفاخ، **ثم قال الله له:** ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، أي: لم يتغير، الطعام والشراب لم يتغير لا باللون، ولا بالرائحة، ولا باليبوسة، وهذا من آيات الله -عز وجل-، وقد قيل إن الطعام كان عنبًا، وقيل: غير ذلك، ولكن لا يهمنا هذا، حتى وإن كان عنبًا، فإنه لم يتغير.

ثم قال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾، نظر إلى عظامه فإذا هي تلوح، فالحمار متغير، والطعام والشراب لم يتغير -سبحان الله-؛ لأن محط الحجة في الحمار، فكون الطعام لم يتغير، والشراب لم يتغير، هذا فيه قدرة على إبقاء الأمور كما كانت، وقضية الحمار فيه دليلٌ على قدرة الله تعالى على إنشاء الأمور بعد اضمحلالها، فلما نظر إلى عظام الحمار وهي تلوح **فقال الله له:** ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، فنظر إلى العظام يركب بعضها بعضًا وتنشز بالعصب، ثم تكسى باللحم، ثم قام الحمار -سبحان الله- ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، وهذه قصة مما تحيي القلب، ويعرف بها قدرة الله سبحانه وتعالى.

كذلك أيضًا قصة ذي القرنين، فذو القرنين آتاه الله ملكًا عظيمًا، بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وقصته مشهورة، ومن أعظم ما فيها من العبر أنه أتى على قوم لا يكادون يفقهون قولًا، يعني: لا يكادون يفقهون هم بأنفسهم، ولا يُفْقِهُون أيضًا، وإن كلمهم الإنسان ما فقهوا، وهم أيضًا إن كلموا لا يفقهوا، **فقالوا له**: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف:٩٤]، يعني: -هل نعطيك دراهم- ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف:٩٤]-؛ لأنه مَلِكٌ عظيم، فظنوا أنه يأخذ رشوة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف:٩٥] يعني خير مما تعطونني، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:٩٥] والردم أعظم من السد؛ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ -[الكهف:٩٦] فزبروا له الحديد، وأحمى عليه النار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٦] فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا، فتلاصق الحديد بعضه ببعض بالنحاس، ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]-؛ لأنه أملس -﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف:٩٧]، وهذه من القصص الغريبة.

كذلك أيضًا قارون، فإن قارون رجل غني من قوم موسى، ولكنه كفر به، وفخر، واستعلى بما أعطاه الله من المال، وبغى على قومه، وآتاه الله من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾، أي: ما يستطيعون حمل المفاتيح، فكيف بالخزائن وما فيها؟! فقال الله -عز وجل- حين طغى هذا الرجل: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

كذلك أيضًا أصحاب الكهف؛ فإن أصحاب الكهف قصتهم عجيبة

فَهُمْ سبعة ومعهم كلبهم، خرجوا من قومهم؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، وهؤلاء مخلصون لله موحدون له، خرجوا مهاجرين إلى الله، وما أحد قصد الله فخاب أبدًا، آواهم الله -عز وجل-، فهيأ لهم كهفًا واسعًا، وجهُه إلى الشمال الشرقي، ما تأتيه الشمس إذا غربت، ولا إذا أشرقت. قال -تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف:١٧]، أي: شيء يسير عند الغروب.

فبقوا في الغار نائمين وليسوا ميتين، والنائم إذا طال نومه، ملَّ، وجاع، وعطش، لكن هؤلاء ما فعلوا، إلا أن الله يقلبهم ذات اليمين، وذات الشمال، لئلا تفسد أجسادهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]، وربط الله به ما تعداهم، فبقوا ثلاثمئة سنة وتسع سنوات، حتى أخلف الله -سبحانه وتعالى- عن الملك الأول المشرك بملك صالح.

فبقوا في هذا الكهف هذه المدة، يقلبهم الله -عز وجل- ذات اليمين، وذات الشمال، ولم يقل: «يتقلبون»؛ لأن فعل النائم لا يُنسب إليه، فقد رُفع عنه القلم، يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال؛ فلما بعثهم الله -عز وجل- تنازعوا ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩] وهم بقوا ثلاثمئة سنين وتسع سنوات؛ لأنهم ناموا أول النهار واستيقظوا آخر النهار، فظنوا أنهم ناموا يومًا واحدًا، أو يومين ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وطلبوا أن يُبْعث واحد منهم بورقهم، أي: بالدراهم إلى المدينة، ليشتري طعامًا، ولما ذهب إلى المدينة، ورأوا السكة، والسكة قديمة لها ثلاثمئة سنة، ولعلها والله أعلم عليها صورة الملك القديم، فتعجبوا منه، وهذه القصة فيها عبر عظيمة.

وكذلك **أيضًا أصحاب الفيل**، فأصحاب الفيل قوم جاءوا ليهدموا الكعبة، وذلك أن مَلِك اليمن وضع عنده كعبةً تضاهي الكعبة التي في مكة؛ من أجل أن الناس يحجون إليها، فجاء أحدُ العرب إلى هذه الكعبة، وتغوط فيها، إهانةً لها، فغضب الملك، وبعث إلى مكة جندًا عظيمًا يتقدمهم فيلٌ عظيم، يريد أن يهدم الكعبة.

فلما وصل إلى مكان يسمى المغمس، طريق من ريع الحجون، أَبى الفيلُ أن يتقدم إذا وجهه إلى مكة وقف، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول -بإذن الله عز وجل-، ولهذا لما بركت ناقة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في الحديبية، وأراد منها أن تقوم أبت، فقال الصحابة، «خلأت القصواء، خلأت القصواء» وخلأت يعني حرنت، فقال النبي ﷺ: «**وَاللهِ مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءِ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ**»[1]، فدفعُ الظلمِ حتى عن البهائم واجبٌ؛ لأنهم ظلموها لما قالوا: خلأت، فقال: ما خلأت فعلًا، وأيضًا ليس هذا لها بخلق، «ناقة مطواع، ولكن حبسها حابس الفيل».

المهم أن أصحاب الفيل أرسل الله -تعالى- عليهم طيرًا أبابيل، قال العلماء «**أَبَابِيلَ**» يعني: جماعات متفرقة، معها حجارة من سجيل، وهذه الحجارة تضرب الواحد من رأسه وتخرج من دبره، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:٥]، و«**الْعَصْفُ**» هو الزرع الذي أكلته الإبل، أو البقر ووطئته بأقدامها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة في الحرب، رقم (٢٧٣٤).

والفيل حبسه الله تعالى في مكان يقال له: المغمس، كما قال الشاعر الجاهلي[1]:

حُبِسَ الْفِيلُ بِالْـمُغَمَّسِ حَتَّى صَـارَ يَحْبُـو كَأَنَّـهُ مَعْقُـورُ

وليس في وادي محسر كما زعمه بعضُ العلماء، وإنما أسرع النبي -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم-، في وادي محسر لوجهين:

الوجه الأول: أن الوادي دعث، يعني: فيه رملٌ مع التراب، وهذا يجعل الإبل ترتاث في المشي فأسرع.

الوجه الثاني: أن أهل الجاهلية كانوا يقفون في هذا الوادي، ويذكرون أمجادهم وأمجاد آبائهم، فأراد النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- أن يخالفهم، فهم ينزلون والرسول ﷺ يسرع.

كذلك أيضًا أصحاب الأخدود، والأخدود: جمع خد، وهو الحفر في الأرض كحفر السواقي، فأصحاب الأخدود قومٌ اعتدَوْا على قوم مؤمنين بالله -عز وجل-، اعتدوا عليهم هذا العدوانَ البشع، وحاولوا منهم أن يرتدوا عن إيمانهم، ولكنهم أبَوْا وأصرُّوا على الإيمان، وفي ذلك أنزل الله -تعالى-: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج:١-٦] فخدوا الأخاديد، وأضرموا فيها النار، وجعلوا يُلقون المؤمنين في النار، وهم قعودٌ متفكهين حولها، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) الشعر لأبي الصلت الثقفي، أو لأمية بن أبي الصلت الثقفي، كما في ديوانه (١٦٤).

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج:٧-٨]، لم يعتدِ هؤلاء المؤمنون عليهم بأخذ مالٍ، ولا بانتهاك عرضٍ، ولا بضربٍ، ولا بشيء، وما هي إلا عداوة دينية من هؤلاء المعتدين، ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:٨-١٠].

وعلم من الآية: أنهم لو تابوا لم يعذبوا بجهنم، والتوبة من الكفر تَجُبُّ ما قبلها، حتى وإن كان متعلقًا بالغير؛ لقوله -تعالى-: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

فإن قال قائل: كيف يغفر لهم وهذا حق آدمي؟

فالجواب: أن قتل هؤلاء الكفار لهؤلاء الآدميين ليس لكونهم آدميين، بل لإيمانهم، ولكراهتهم للإيمان، ولمن يحمل الإيمانَ، ولهذا إذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل، ولهذا قال -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، قال الحسن البصري -رحمه الله-: «ما أحلم الله! يقتلون أولياءه، ثم يدعوهم إلى التوبة»(١)، ولا شك أن هذا من حِلْمِ الله -عز وجل- على عباده.

قوله: «وغير ذلك» وذلك مثل: صاحب الجنتين، وأصحاب الجنة، وكذلك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوفٌ حذر الموت، ولهذا نقول: إن في سورة البقرة خمسَ قَصَصٍ فيها إحياء الموتى:

القصة الأولى: في قوم موسى: وذلك أنهم قالوا: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص:٥٩).

نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥]، ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

القصة الثانية: في أصحاب البقرة: وذلك أنهم تنازعوا في قتيل لهم، فأمر الله -سبحانه وتعالى- أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيلَ ببعضها، فذبحوها، وما كادوا يفعلون، وضربوه ببعضها فحيا الرجل، وقال: الذي قتلني فلان، والظاهر أنه بعدها مات.

القصة الثالثة: في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فهؤلاء قومٌ وقع في ديارهم وَبَاءٌ، فخرجوا هاربين خوفًا من الموت، فأراهم الله -عز وجل- أنه لا مفر من قدر الله، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]، فأماتهم الله -عز وجل-؛ ليعلموا أنه لا مفرَّ من قدر الله تعالى؛ «ولهذا نهى النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-، من وقع في أرضه الطاعون، نهى أن يخرج من أرضه فرارًا من الطاعون»[1]؛ لأن هذا ينافي التوكل؛ ولأنه ربما يعاقب بأن يموت.

القصة الرابعة: وذلك في صاحب القرية الذي مرَّ عليها، وهي خاوية على عروشها، وقد تقدم هذا[2].

القصة الخامسة: في قصة إبراهيم -عليه السلام- كما جاء في الكتاب العزيز قال -تعالى-: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة وغيرها، رقم (٢٢١٨).
(٢) ينظر (ص:٣٢٨-٣٢٩).

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وفي هذه الآية دلالة على أن الإنسان مأمور بأن يَزِيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثبات، فأمر الله -عز وجل- أن يأخذ أربعةً من الطير، وأن يقتلهن ذبحًا، ويخلط بعضهن ببعض، ويجعل على كل جبل منهن جزءًا، ففعل، ثم أمره الله -عز وجل- أن يدعوهن، ويقول: أيتها الطيور أقبلي -وهي كلمة-، فأقبلت عليه تأتيه سعيًا لا طيرانًا على خلاف المألوف من الطيور من أماكن بعيدة، فأتت من قِمَم الجبال تسعى سعيًا، حتى وقعت بين يديه، بعد أن أحياها الله -عز وجل-.

فالحاصل: أن القصص في القرآن كثيرة، وكلها نافعة وفيها عبرة، لكن ينبغي أن ننبه على أن هناك مؤلفين ألفوا في قصص الأنبياء، وألفوا في قصص القرآن عمومًا، لكن خلطوا بين الحابل والنابل، وصاروا كحاطب ليل، ولذلك يجب الحذر مما أُلِّف في قصص الأنبياء أو غيرها من قصص القرآن.

كذلك -أيضًا- غزوة بدر مذكورة في القرآن، كذلك أحد، والأحزاب، وبنو قريظة، وبنو النضير، وزيد بن حارثة، وأبو لهب، ولهذا الذي ذكر باسمه في القرآن من هذه الأمة رجلان:

أحدهما: في مقام الثناء.

والثاني: في مقام القدح.

فالذي في مقام الثناء زيد، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

وفي مقام القدح أبو لهب، أنزل الله -تعالى- فيه سورة كاملة تتلى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد:١-٥]، وهو عم الرسول -عليه الصلاة والسلام- والله -تعالى- لا يحابي أحدًا لقرابته من الرسول، ولا يظلم أحدًا لبعده من الرسول، فأبو لهب أنزل الله فيه سورة كاملة في ذمه وقدحه.

وأبو طالب قال الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، مع أن كلًّا منهما عمٌّ، لكن أبا لهب آذى الرسول عليه الصلاة والسلام، وأبا طالب نصر الرسول -عليه الصلاة والسلام- والله -تعالى- حَكَمٌ عدل، أعطى كل واحد منهما ما يستحقه.

فإن قيل: هل ذُكِر أحدٌ من الصحابة في القرآن بوصف ينطبق عليه على وجه تام؟

فالجواب: نعم، وهو أبو بكر -رضي الله عنه- في قوله -تعالى-: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة:٤٠]، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ هذه أجمع المفسرون على أن المراد بها أبو بكر -رضي الله عنه-.

وكذلك يقال كما قاله بعض العلماء في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١]، فهذه الآية نزلت في أبي بكر، لكن لا يمنع أن تكون شاملةً لغيره؛ لأن العبرة بعموم اللفظ أما: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ فهذا وصفٌ لا يستحقه سوى أبي بكر -رضي الله عنه-.